ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ﴾

الكلام هنا عن العباد المكرمين من الملائكة ، فمع أن الله أكرمهم وفضَّلهم ، إلا أنه لم يتركهم دون متابعة ومراقبة ، إنما يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم تُترك لهم مسألة الشفاعة يُدخلون فيها مَنْ أحبوا إنما ﴿ لا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. (٢٨) ﴾ [الأنبياء]

أى : لمن ارتضاه الله وأحبه ، فإياكم أنْ تفهموا أنكم حين تقولون : الملائكة بنات الله ، أو تعبدونهم من دون الله أنهم يكونون لكم شفعاء عند الله ؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمنْ أحبَّه الله ، وارتضاه من أهل الإيمان ، فلا تظن أنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾ [الأنبياء] أى : مُدلَّلُون يفعلون ما يحلو لهم ، لا ، إنهم مع ذلك ملتزمون بحدودهم لا يتعدونها ، فما أكرمتهم كل هذا الإكرام إلا لأنهم مطيعون ملتزمون .

وهم مع هذه الطاعة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ﴾ [الأنبياء] فليسوا مع هذا الإكرام مطمئنين آمنين ، بل مشفقون خائفون وجلون من خشية الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ[1] مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾

(١) قال الضحاك : لم يقل ذلك أحد من الملائكة إلا إبليس ، دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر . وقال قتادة : إنما كانت هذه خاصة لإبليس . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٦٢٥/٥] .

أى : على فَرْض أنْ قال أحدهم هذا القول ، إذن : هذا كلام لم يحدث ، ولا يمكن أنْ يُقال منهم ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [الأنبياء] لماذا ؟ لأنهم أخذوا الظُّلم فى أعلى مراتبه وعُنفوانه وطغيانه ، ظلم فى مسألة القمة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

لذلك يُهدِّدهم ، مع أنهم ملائكة ومكرمون ، لكن إنْ بدر من أحدهم هذا القول فجزاؤه جهنم ، وفى هذا اطمئنان للخَلْق أجمعين .

• • •

بعد ذلك أراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُدلِّل على هذه الوحدانية التى أكَّدها فى كلامه السابق . والوحدانية فى طَيِّها الأحدية ، لأن هناك فَرْقاً بينهما ، وليسا مترادفين كما يظن البعض ، فواحد وأحد وَصْفَانِ لله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] وقال : ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾ [الرعد]

فالواحد أى : الفرد الذى لا يُوجد له نظير ، وهذا الواحد فى ذاته أحد أى : ليس له أجزاء ، فالواحدية تمنع أنْ يُوجد فَرْد مثله ، والأحدية تمنع أن يكون فى ذاته مُكوَّناً من أجزاء ؛ لأنه سبحانه لو كوِّن من أجزاء لصار كل جزء محتاجاً فى وجوده إلى الجزء الآخر ، فلا احتياج له فى وجوده ليكوِّن كله ، إذن : فلا هو كلىّ ، ولا هو جزئى .

فاختار سبحانه للتدليل آيات الكون الموجودة والمشهودة التى لا يمكن أنْ ينكرها أحد ؛ لأنها آيات مُرتَّبة واضحة ونافعة فى الوقت نفسه ، فقد يكون المرئى واضحاً لكن لا حاجةَ لك فيه ـ فالإنسان يشعر بمنفعة الشمس لو غابت عنه ، ويشعر بمنفعة المطر إن امتنعت السماء عن المطر .. إلخ .

فمشهودية هذه الآيات تقتضى الالتفات إليها ، والنفعية فيها تقتضى أيضاً الالتفات إليها ، حتى وهى غائبة عنك ، فتنظر وتتطلع إلى عودتها من جديد .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا(١) فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أعميتْ أبصارهم ، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام ، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله . وهكذا كلما رأيت الهمزة بعد الواو والفعل المنفى .

لكن كيف يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] والحديث هنا عن السماء والأرض ، وقد قال تعالى ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] ؟

فهذه مسألة لم يشهدها أحد ، ولم يخبرهم أحد بها ، فكيف يرونَها ؟

سبق أن تكلمنا عن الرؤية فى القرآن ، وأن لها

(١) رتقاً : أى مرتوقتين أى متصلتين فى كتلة واحدة ، وبهذا يقول علم الفلك الحديث . [القاموس القويم ١/٢٥٤] . وقد أورد القرطبى فى تفسيره [٦/٤٤٥٩] آثاراً للسلف فى هذا ، منها : « قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء » .

استعمالات مختلفة : فتارة تأتى بمعنى : نظر أى : بصرية . وتأتى بمعنى : علم ، ففى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل]

والنبى ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ولم يشهدها ؛ لأنه وُلد فى نفس عامها ، فالمعنى : ألم تعلم ، فلماذا عَدلَ السياق عن الرؤية البصرية إلى الرؤية العلمية ، مع أن رؤية العين هى آكد الرُّؤى ، حتى أنهم يقولون : ليس مع العَيْن أيْن ؟

قالوا : لأن الله تعالى يريد أن ينبه رسوله ﷺ : أنت صحيح لم ترهَا بعينيك ، لكن ربك أخبرك بها ، وإخبار الله أصدق من رؤية عينيك ، فإذا أخبرك الله بشىء فإخبار الله أصدقُ من رؤية العين ، فالعين يمكن أنْ تخدعك ، أو ترى بها دون أنْ تتأمل . أما إخبار الله لك فصادقٌ لا خداعَ فيه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ⑧③﴾ [مريم]

لكن ، كيف تمَّتْ الرؤية العلمية لهم فى مسألة خَلْق السموات والأرض ؟

قالوا : لأن الإنسانَ حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ : من أين جاء هذا الكون العجيب ؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشىء العجيب ، ويسأل عنه ، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به ، فما بالُكَ إنْ كان شيئاً نافعاً له ؟

إذن : كان عليهم أن ينظروا : مَن الذى نبَّأ رسول الله بهذه المسألة ؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها ، وقد جاءهم رسول الله

بمعجزة تُثبت صدقه فى البلاغ عن الله ، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه ، وما دام الكلام من الله فهو صدق : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) ﴾ [النساء]

وقد نزل القرآن وفى جزيرة العرب كفار عُبَّاد أصنام ، وفيها اليهود وبعض النصارى ، وهما أهل كتاب يؤمنون بإله وبرُسُل وبكتب ، حتى إنهم كانوا يجادلون الكفار الوثنيين يقولون لهم : لقد أطلّ زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

ومع ذلك ، لما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به ، والتحموا بالكفار ، وكوَّنوا معهم جبهة واحدة ، وحزباً واحداً ، ما جمعهم إلا كراهية النبى ، وما جاء به من الدين الحق ، وما أشبهَ هذا بما يفعله الآن كُلٌّ من المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى من اتحاد ضد الإسلام .

إذن : بعد أنْ جاء الإسلام أصبح أهلُ الكتاب والكفار ضد الإسلام فى خندق واحد ، وكان الكفار يسمعون من أهل الكتاب ، وفى التوراة كلام عن خَلْق السماء والأرض يقول : إن الله أول ما خلق الخَلْق خلق جوهرة ، ثم نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان ، فالدخان صعد إلى أعلى فكوَّنَ السماء ، والبقية ظلتْ فكوَّنت الأرض .

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) .

وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْق ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء]

وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى : ﴿كَانَتَا رَتْقًا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] قالوا : السموات جمع ، والأرض كذلك جنس لها جمع ، فالقاعدة تقتضي أنْ نقول : كُنَّ رتقاً بضمير الجمع . وصاحب هذا الاعتراض لم يَدْرِ أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى السماء كنوع والأرض كنوع ، فالمراد هنا السماوية والأرضية وهما مُثنًّى .

وفي القرآن نظائر كثيرة لهذه المسألة ؛ لأن القرآن جاء بالأسلوب العربي المبنيّ على الفطْنة والذكاء ومُرونة الفهم . فخُذْ مثلاً قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩)﴾ [الحجرات]

فلم يقُلْ حسْب الظاهر : اقتتلتَا ؛ لأن الطائفة وإنْ كانت مفرداً إلا أنها تحوي جماعة ، والقتال لا يكون بين طائفة وطائفة ، إنما بين أفراد هذه وأفراد هذه ، فالقتال ملحوظ فيه الجمع ﴿وَاقْتَتَلُوا.. (٩)﴾ [الحجرات] فإذا ما جئْنا للصلْح نرى أن الصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفراد ، وإنما بين ممثّل عن كل طائفة ، فالصُّلْح قائم بين طرفين ؛ لذلك يعود السياق للتثنية .

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ..(٩)﴾ [الحجرات]

والرَّتْق : الشيء الملتحم الملتصق ، ومعنى ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] أي : فَصَلْناهما وأزَحْنَا هذا الالتحام ، وما ذُكر في التوراة من أن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها في هَيْبة ، فحصل لها كذا

وكذا في القرآن له ما يؤيده في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. (١١)﴾ [فصلت]

والعلماء ساعةَ يستقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتهادية مختلفة ؛ لأنها تتعرَّض لحقيقة الكون ، وهذا أمر قابل للخلاف ، فكلُّ واحد منهم يأخذ منه على قَدْر ثقافته وعِلْمه .

فالعربي القديم لم يكُنْ يعرف كثيراً عن الظواهر الكونية ، لا يعرف الجاذبية ، ولا يعرف كُروية الأرض ولا حركتها ، فلو أن القرآن تعرَّض لمثل هذه الأمور التي لا يتسع لها مداركه وثقافته فلربما صرفه هذا الكلام الذي لا يفهمه ، ولك أنْ تتصوَّر لو قلتَ له مثلاً : إن الأرض كرة تدور بنا بما عليها من بحار وجبال الخ .

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحاً لا غموض فيه ، أمَّا الأمور الكونية التي تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التي تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا مجرد إشارة ، وعلى العقول المتأمِّلة أنْ تُكملَ هذه المنظومة .

وقد كان لعلماء الإسلام موقفان في هذه المسألة ، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله ، والغرام بكتابه ، والرغبة الصادقة في إثبات صدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن ، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعةَ عشر قرناً من الزمان .

الموقف الأول : وكان أصحابه مُولعين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديد شاهداً من القرآن ليقولوا : إن القرآن سبق إليه وأن محمداً ﷺ صادق في بلاغه عن الله .

الموقف الثانى : أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيَّبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْدُ ، ويلتمسون لها شاهداً من كتاب الله ، ثم يثبُت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن .

والموقف الحق أن هناك فرقاً بين نظرية علمية ، وحقيقة علمية ، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد ؛ لذلك يقولون : هذا كلام نظرى أى : يحتاج إلى ما يؤيده من الواقع ، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة ، وثبت صدقها عملياً ووثقنا أنها لا تتغير .

فعلينا ـ إذن ـ ألاَّ نربط القرآن بالنظرية التى تحتمل الصدق أو الكذب ، حتى لا يتذبذب الناس فى فَهْم القرآن ، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا . أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن .

من ذلك مُسألة كروية الأرض ، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتباً ، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك ؛ لأن هذه المسألة لم ينص عليها القرآن . فلما تقدم العلم ، وتوفرتْ له الأدلة الكافية لإثبات هذه النظرية ، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر ، فلماذا لا تكون الأرض كذلك ؟!

كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطىء البحر ، ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها ، ولا ترى باقى المركب إلا إذا اقتربتْ منك ، عَلاَمَ يدلُّ ذلك ؟ هذا يدل على أن سطح الأرض ليس مستوياً ، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرويتها .

فلما جاء عصر الفضاء ، وصعد العلماء للفضاء الخارجى ، وجاءوا للأرض بصور ، فإذا بها كُروية فعلاً ، وهكذا تحولتْ النظرية

إلى حقيقة علمية لا تُدفع ، ولا جدال حولها ، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلاّ قبولها والقول بها .

وما قلناه عن كُروية الأرض نقوله عن دورانها ، ومَنْ كان يصدق قديماً أن الأرض هي التي تدور حول الشمس بما عليها من مياه ومَبانٍ وغيره ؟ ولك أن تأخذَ كوزاً ممتلئاً بالماء ، واربطه بخيط من أعلى ، ثم أدِرْه بسرعة من أسفل إلى أعلى ، تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دون أنْ ينسكب الماء ، لماذا ؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التي تجذب الماء إليها ، بدليل أنك إذا تهاونتَ في دوران الكوز يقع الماء من فُوهته ، ولا بُد من وجود تأثير للجاذبية ، فجاذبية الأرض هي التي تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها .

أما أن نلتقط نظرية وليدة في طَوْر البحث والدراسة ، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية ، حين اكتشف العلماءُ المجموعةَ الشمسية ، وكانت في بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتَّبة حسب قُرْبها من الشمس في المركز : عطارد ، فالزهرة ، فالأرض ، فالمريخ ، فالمشترى ، فزُحَل ، فأورانوس .

وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار ـ منهم الشيخ المراغي ـ بالقول بأنها السموات السبع ، وكتبوا في ذلك بحوثاً ، وفي القرآن الذي سبق إلى هذا . ومرَّتْ الأيام ، واكتشف العلماء الكوكب الثامن (نبتون) ، ثم التاسع[1] .

إذن : رَبْط النظرية التي لم تتأكد بَعْد علمياً بالقرآن خطأ كبير ، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزةٌ أحدث ومجاهر أكبر ـ كما يقول بعض علماء الفضاء ـ لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة ، لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة في المجرة التي نسميها

(١) لم يتم اكتشاف كوكب (بلوتو) إلا في عام ١٩٣٠ م . [موسوعة المعرفة ـ ص ٣٧] .

(سكة التبَّانة) ، والإغريق يسمونها (الطريق اللبنى)[١] .

وهذه الكواكب التى نراها كبيرة وعظيـمة ، لدرجة تفوق تصورات الناس ، فالشمس التى نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة[٢] ، وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس فى جوفه . والمسافة بيننـا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وتُحـسب الدقيقة الضوئية بأن تُضـرب فى ستين ثانية ، الثـانية الواحدة السرعة فـيها ١٨٦ ألف ميل يعنى : ثلاثمائة ألف كيلومتر[٣] .

أما المسافـة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حـسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق ، فوجدوها مـائة سنة ضوئية ، أما الشِّعْرى الذى امتنَّ الله به فى قوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النجم] فهو أبعد من ذلك . وهذه الكواكب والأفلاك كلها فى السمـاء الدنيا فقط ، فما دَخْل هذا بالسموات السبع التى تحدثوا عنها ؟!

لذلك حاول كثـيرون من عُشَّاق هؤلاء العلماء أن يمحـوا هذه المسألة من كتبهم ، حتى لا تكون سُبَّة فى حقِّهم وزلّة فى طريقهم العلمى .

كذلك من الـنظريات التى قالوا بهـا وجانبتْ الصـواب قولهم : إن المجموعـة الشمسية ومنها الأرض تكوَّنت نتـيجة دوران الشمس وهى كتلة ملتهـبة ، فانفصل عنها بعض (طـراطيش) ، وخرج منها بعض الأجزاء التى بردتْ بمرور الوقت ، ومـنها تكونت الأرض ، ولما بردتْ

---

(١) أول من وصف حزمـة الضوء العريضـة التى تعرف باسم الطريق اللبنى هو ديمـوكريتس والذى ذهب إلى أن الطريق اللبنى إنما يتكون من عدد وفير من النجوم بحيث لا يمكن لأحد أن يميـز بينها ، ولقـد أثبتت المناظيـر الفلكية الحـديثة صـحة ما ذهب إليـه . [موسـوعة المعرفة ص ٥] .

(٢) جاء فى « موسـوعة المعرفة » (ص ٢٢) : « لو كـانت الشمس كرة مفـرغة لأمكنها أن تستوعب ١،٣٠٠،٠٠ كرة ، كل واحدة منها فى مثل حجم الأرض ، من قبل أن تمتلىء » .

(٣) أى : أن الشمس تبعد عن الأرض بحوالى ٩٤ مليـون ميل ، ويصلنا ضوؤها الذى ينطلق بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية فى أكثر من ثمانى دقائق بقليل . [موسوعة المعرفة ص ٣٦] .

الأرض أصبحتْ صالحة لحياة النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان ، بدليل أن باطن الأرض ما يزال ملتهباً حتى الآن . وتتفجر منه براكين كبركان (فيزوف)[1] مثلاً .

والقياس العقلى يقتضى أن نقول : إذا كانت الأرض قطعة من الشمس وانفصلت عنها ، فمن الطبيعى أن تبرد مع مرور الزمن وتقلّ حرارتها حتى تنتهى بالاستطراق الحرارى ، إذن : فهذه نظرية غير سليمة ، وقولكم بها يقتضى أنكم عرفتم شيئاً عن خَلْق السموات والأرض ما أخبر الله به ، وقد قال تعالى : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

ثم يقول فى آية جامعة ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

والمضلّ هو الذى يأخذ بيدك عن الحقيقة إلى الباطل ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ما سيكون من أقوال مُضلِّة فى هذه المسألة تقول : حدث فى الخلق كيت وكيت .

والواجب علينا أن نأخذ هذه التفاصيل من الخالق - عز وجل - وأن نقف عند هذا الحد ، لأن معرفتك بكيفية الشىء ليست شرطاً لانتفاعك به ، فأنت تنتفع بمخلوقات الله وإن لم تفهم كيف خُلقَتْ ؟ وكيف كانت ؟ انتفعنا بكروية الأرض وبالشمس وبالقمر دون أن نعرف شيئاً عنها ، ووضع العلماء حسابات للكسوف وللخسوف والأوقات قبل أن تكتشف كروية الأرض .

فالرجل الأمىّ الذى لا يعلم شيئاً يشترى مثلاً « التليفزيون » ويتعلم كيفية تشغيله والانتفاع به ، دون أنْ يعلم شيئاً عن تكوينه أو كيفية عمله ونَقْله للصورة وللصوت .. الخ . فخُذْ ما فى الكون من

(١) يقع بركان « فيزوف » على بعد ١١ كم من مدينة نابولى بإيطاليا ، وهو عبارة عن بركان داخل بركان ، لأنه يقع فى فوهة حوض البركان الخامد المسمى مونت زوما . [موسوعة المعرفة - صفحة ١٠١٢] .

جمال وانتفع به كما خلقه الله لك دون أن تخوض فى أصل خَلْقه وكيفية تكوينه ، كما لو قُدِّم لك طعام شهىّ أتبحثُ قبل أن تأكل : كيف طُهِي هذا الطعام ؟!

وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والفَتْق ، فمنهم مَنْ قال بالرأى الذى قالتْه التوراة ، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة ، وحدث لها كذا وكذا ، وتكوَّنت السماء والأرض .

ومنهم مَنْ رأى أن المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء ، كل على حدَة ، وأنهما لم يكونا أبداً ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) ﴾ [عبس]

وفى موضع آخر قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

فالمراد - إذن - أن الأرض وحدها كانت رَتْقاً ، فتفجرت بالنبات ، وأن السماء كانت رتْقاً فتفجرت بالمطر[1] ، فشقَّ الله السماء بالمطر ، وشقّ الأرض بالنبات الذى يصدعها : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) ﴾ [الطارق]

وقال عن السماء : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. (٢٥) ﴾ [الفرقان]

---

(١) قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضاً فيما ذكر المهدوى : إن السماوات كانت رتقاً لا تمطر ، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر ، والأرض بالنبات [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٠]

على اعتبار أن السماء كُلُّ ما علاك فأظلّك ، فيكون السحاب من السماء .

نفهم من هذا الرأى أن الفَتْق ليس فَتْقَ السماء عن الأرض ، إنما فتق كل منهما على حدَة ، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطى حكماً جديداً ، واجتهاد على قَدْر عطاء العقول قد تُثبته الأيام ، وقد تأتى بشىء آخر ، المهم أن القولَيْن لا يمنع أحدُهما الآخر .

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] قال أصحاب التأويل الثانى : ما دام ذكر هنا الماء ، فلا بُدَّ أن له صلة بالرَّتْق والفَتْق فى كل من الأرض والسماء .

ونلحظ أن الآية لم تَقُلْ : كل شىء حيًا ، إنما ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] وقد استدلوا بها على أن الحيَّ المراد به الحياة الإنسانية التى نحياها ، ولم يفطنوا إلى أن الماء داخلٌ فى تكوين كل شىء ، فالحيوان والنبات يحيا على الماء فإنْ فَقَد الماء مات وانتهى ، وكذلك الأدنى من الحيوان والنبات فيه مائية أيضاً ، فكُلُّ ما فيه لمعة أو طراوة أو ليونة فيه ماء .

فالمعنى ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء مذكور موجود .

والتحقيق العلمى أن لكل شىء حياةً تناسبه ، وكل شىء فيه ماء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

والحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء ، إذن : يحييكم أى : حياة أخرى لها قيمة ؛ لأن حياتكم هذه قصاراها الدنيا ، إنما استجيبوا لحياة أخرى خالدة هى حياة الآخرة .

وسُمِّي الشيء الذي يتصل بالمادة ، فتدبّ فيها الحياة روحاً ، فقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

وسُمِّي المنهج الذي ينزل من السماء لهداية الأرض روحاً ، وسُمِّي الملك الذي ينزل به روحاً ؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية ، لا فناء لها ، وهكذا يتم الارتقاء بالحياة .

فإذا نزلنا أدنى من ذلك وجدنا للحيوان حياة ، وللنبات حياة ، فالحيوان يَنْفَق ويموت ، والنبات إنْ منعتَه الماء جَفَّ وذَبُل وانتهى . أما الجماد فله حياة أيضاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص]

فوَصَف كل ما يقال له شيء بأنه هالك ، والهلاك ضد الحياة ، فلا بُدَّ أن تكون له حياة ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. ﴿٤٢﴾ ﴾[الأنفال] فالحياة ضدُّها الهلاك .

إذن : فكل شيء في المخلوقات حتى الجماد له حياة ، وفي تكوينه مائية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

ويختتم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يعني : أعَمُوا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها ، وامتنعوا عن الإيمان ؟ فكان يجب عليهم أنْ يلتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم ، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آلة حديثة أو حتى لُعبة تبهرهم فيقولون : مَنْ فعل هذه ؟ ويُؤرِّخون له ولحياته ، وتخرَّج في كلية كذا ... الخ .

فمن الأَوْلى أنْ نلتفتَ إلى الخالق العظيم الذي أبدع لنا هذا الكون ، فالانصراف - إذن - عن آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا(١) سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

الرواسى : الجبال جمع رأس يعنى : ثابت ، وقد عبر عنها أيضاً بالأوتاد ، فقال : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ] شبّه الجبال بالنسبة للأرض بالأوتاد بالنسبة للخيمة .

ثم يذكر علّة ذلك : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مخافة أن تميل وتضطرب وتتحرك بهم ، ولو أنها مخلوقة على هيئة الثبوت ما كانت لتميد أو تتحرك ، وما احتاجت لأنْ يُثبِّتها بالجبال ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]

فليس غريباً الآن أن نعرف أن للجبال حركة ، وإنْ كنا لا نراها ؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها ؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنك وصاحبك فى مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السحاب ، فالسحاب لا يمرُّ بحركة ذاتية فيه ، إنما يمرُّ بدفْع الرياح ، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها ، وهذا دليل واضح على حركة الأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : من حكمة الله أنْ جعل لنا فى الأرض سُبُلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صلُحَتْ لحياة البشر وحركتهم

---

(١) الفج : الطريق الواضح الواسع ، وجمعه فجاج . [القاموس القويم ٢/٧٢] . والفجاج : المسالك ، والفج : الطريق الواسع بين الجبلين . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٢] .

فيها ، فقال ﴿ فِجَاجًا سُبُلاً .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] أى : طرقاً واسعة فى الوديان والأماكن السهلة . وفى موضع آخر قال : ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح]

ومعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] يصح فى الجبال أو فى الأرض ، ففى كل منهما طرق يسلكها الناس ، وهى فى الجبال على شكل شِعَاب ووديان .

ثم يذكر سبحانه علَّة ذلك ، فيقول : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] والهداية هنا تحتمل معنيين : يهتدون لخالقها ومكوِّنها ، ويستدلون بها على الصانع المبدع سبحانه ، أو يهتدون إلى البلاد والأماكن والاتجاهات ، وقديماً كانوا يتخذون من الجبال دلائل وإشارات ويجعلونها علامات ، فيصفون الأشياء بمواقعها من الجبال ، فيقولون : المكان الفلانى قريب من جبل كذا ، وعلى يمين جبل كذا ، وقد قال شاعرهم :

خُذَا بَطْنَ هِرْشَى[1] أو قَفَاهَا فَإِنَّهُ ... كِلاَ جَانِبَى هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ[2]

فالهداية هنا تشمل هذا وذاك ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] أى : يهتدون إلى الطرق والاتجاهات ، وكان العربى يقول مثلاً : اجعل الثُّريَا عن يمينك أو النجم القطبى ، أو سهيل أو غيرها ، فكانوا على علم بمواقع هذه النجوم ويسيرون على هَدْيها .

---

(١) هرشى : ثنية فى طريق مكة قريبة من الجُحْفة يُرَى منها البحر ، ولها طريقان ، فكلُّ من سلكهما كان مصيباً . [لسان العرب ـ مادة : هرش] .

(٢) أورد ابن منظور هذا البيت فى لسان العرب ، ولم يعزه لأحد . [لسان العرب ـ مادة : هرش] .

أو : يهتدون إلى أن للنجوم علاقة بحياة الإنسان الحىّ ، وقديماً كانوا يقولون : فلان هَوَى نَجْمه ، كأن لكل واحد منا نجماً فى السماء له علاقة ما به ، وهذه يعرفها بعض المختصين ، وربما اهتدوا من خلالها إلى شىء ، شريطة أن يكونوا صادقين أمناء لا يخدعون خَلْق الله .

ويُؤيِّد هذا قوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة] أى : لو كنتم على معرفة بها لعلمتُم أن للنجوم دوراً كبيراً وعظيماً فى الخَلْق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾

سمِّى السماء سقفاً ؛ لأن السماء كل ما علاَك فأظلَّك ، وفرْقٌ بين سقف من صنع البشر يعتمد على أعمدة ودعائم .. الخ ، وسقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطى الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة ، سقف مُسْتوٍ لا نتوءَ فيه ولا فتور .

والسماء أخذتْ دوراً تكوينياً خصَّها الله به كما خَصَّ آدم عليه السلام . فالخَلْق جميعاً خُلقوا بكُنْ من أب وأم ، أمّا آدم فقد خُلق خلقاً مباشراً بيد الله سبحانه ، لذلك قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص] وهذا شرف كبير لآدم .

وكذلك قال فى خَلْق السماء : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ[1] .. (٤٧) ﴾ [الذاريات]

---

(١) بأييد : أى بقوة وقدرة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٧) .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ ﴾ [الذاريات] يعنى : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التى لا تُدرَك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات ؛ لذلك ترى السماء ملساء ؛ ولذلك قال عنها الخالق عز وجل : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النازعات]

ولك أن تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدنا أنْ يبنيَ مثلاً ، أو يصنع سقفاً ، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عن طوبة ، فيأتى عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ، ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك نجد فى الجدار تعاريج ، ثم يأتى عامل الدهانات ، فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيعد لها معجوناً ويكون له فى الحائط دور هام .

وبعد أن يستنفد الإنسان كل وسائله في إعداد بيته كما يحب تأتى بعد عدة أيام ، فترى الحق - سبحانه وتعالى - يُعدِّل على الجميع ، ويُظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغتْ من الدِّقة بقليل من الغبار ينزل عمودياً فيُريك بوضوح ما فى الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحذَقه فى عمله ، فما بالك إنْ كان الصانع هو الله الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن ؟

﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا[2] مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الملك]

وانظر إلى أمهر الصُّناع الآن ، يُسوِّى سقفاً لعدة حجرات ،

---

(١) أى : جعل سقفها مرفوعاً عالياً ، أو جعل المسافة بينها وبين الأرض بعيدة . [القاموس القويم ١/ ٣٢٩] .

(٢) أى : طبقة فوق طبقة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٩] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٩٦) : « أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هُنَّ متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان : أصحهما الثانى كما دل على ذلك حديث الإسراء » .

ويستخـدم مادة واحدة ويُلوِّنها بلون واحد ، لابُدَّ أن تجد اخـتلافاً من واحدة للأخرى ، حتى إنْ خلط العامل اللون مرة واحدة لكل الحجرات يأتى اللون مـخـتلفاً ، لـماذا ؟ لأنه حـين يأخـذ من هذا الخليط تجـد ما يتبـقى أكثر تركيـزاً ، فإذا لم يكمل العمل فى نفس اليـوم تجد ما تبقَّى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً فى درجة اللون .

ومعنى ﴿ مَّحْفُوظًا .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الانبياء] أى : فى بنية تكوينه ؛ لأنه مُحْكَم لا اخـتلافَ فـيه ، ولا يحفظ إلا الـشىء النفيس ، تحافـظ عليه لنفـاسـتـه وأصـالتـه . لكن من أىِّ شىء يحـفظه الله ؟ يحـفظهـا أن تمور ، يحفظها أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج]

وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم]

إذن : فى خَلْق السمـاء عظمة خَلْق ، وعظمـة تكوين ، وعظمة صـيانة تناسب قدرته تعـالى ، ولا يقدر عليـها إلا الله . فالصيـانة من عندنا نحن ، ولن نترك لكم صيانتها ، وإنْ كانت لا تحتاج إلى صيانة لأنها صنعتنا .

ومن المسـائل التى بيَّنهـا لنا الحق ـ سبـحانه وتعالـى ـ فى أمر السماء مسألة استراق الـسـمع ، فكانت الشياطين قبل الإسلام تسترق السمع[1] ، لكن بعـد رسالة محـمد ﷺ شـاء الحق سبحـانه ألاَّ يدلس على دعوته بسماع شيطان يُوحِى إلى أعدائه ، فمنع الجن من استراق السمع بالشُّهُب ، فقال سبحانه :

---

(١) قال تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن] قال ابن عـباس : كان الشياطين لهم مقـاعد فى السماء يستمعون فـيها الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فـيها تسعاً ، فأما الكلمة فـتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيكون باطلاً . فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنـعُوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك . فقال لهم إبليس : ما هَذا الأمر إلا لأمر حدث فى الأرض . فـبعث جنوده فـوجدوا رسـول الله ﷺ قائمـاً يصلى بين جبلى نخلـة ، فأتوه فأخبروه . فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . أخـرجه الترمذى وصـححه والنسائى وابن جرير وأبو نعيم فى دلائل النبوة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٨/٣٠٢]

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) ﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء] كأن السماء آيات خاصة بها ، ففى الكون آيات كثيرة ، وللسماء آياتها ، فالشمس والقمر والنجوم والأفلاك من آياتها .

وبعد ذلك نسمع من رجال الارصاد أن من كواكب السماء ما لم يَصلْنا ضوؤه منذ خلق الله الأرض حتى الآن ، مع أن سرعة الضوء ثلثمئة ألف كيلومتر في الثانية ، ويمكن أن نفهم هذا فى ضوء قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات]

لذلك يعطينا رسول الله ﷺ صورة تقريبية لهذه المسألة ، حتى لا نُرهق أنفسنا بالتفكير فيها : « ما السموات والأرض وما بينهما بالنسبة لملك الله إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة »[1] .

ومع ذلك لما صعد رواد الفضاء للقمر سارع بعض علمائنا من منطلق حُبِّهم للإسلام وإخلاصهم للقرآن بالقول بأنهم صعدوا للسماء ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

والمراد هنا : سلطان العلم الذى مكَّنهم من الصعود .

لكن ما داموا نفذوا بسلطان العلم ، فلماذا قال بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[2] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] إذن :

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٤ ـ موارد الظمآن) من حديث طويل لأبي ذر الغفاري وفيه « يا أبا ذر ، ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة » .

(٢) الشواظ : بضم الشين وكسرها ، القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ٣٦١/١] .